قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم

أ.م.د. كريمة محمد كربية
جامعة سلمان بن عبد العزيز/ المملكة السعودية

مقدمة:

إنّ النص الأدبي عبارة على لفظ ومعنىً، وهناك من النقاد من تعصَّب للفظ، وهناك من فضَّل المعنى، وهناك من ترك هذا وذاك وقال بالعلاقة القائمة بينهما، وبحث بعضهم عن دلالة الألفاظ في ضوء المعاني، كلُّ ذلك من أجل تقويم النص الأدبي، وهذه الإعتبارات المختلفة جعلت الدارسين يعنونَ بقضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، وهي من أبرز القضايا التي خاض فيها النقاد قديما، إذ قامت معركة بينهم على أشدها في تحديد دور كل منهما في إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية.

لذلك لا بد من تعريف اللفظ والمعنى لُغةً، فاللفظ مصدر للفعل بمعنى الرمي، ويتناول ما لم يكن صوتا وحرفا، وما هو حرف واحد وأكثر، مهملا كان أو مستعملا، صادرا من الفم أو لا، ثم خُصَّ في عرف اللغة بما صدر من الفم، من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحدا أو أكثر، مهملا أو مستعملا[١]. وجاء في لسان العرب: "لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظا رميته، يقال أكلتُ الثمر ولفظتُ النواة أي رميتها"[٢]، أما المعنى فهو ما يُقصدُ بشيء، ولا يطلقون المعنى على شيءٍ إلاّ إذا كان مقصودا، وأما إذا فُهِمَ الشيءُ على سبيل التبعية فيسمى معنىً بالعرض لا بالذات[٣]، ومعنى كلِّ كلام ومعناته ومعنيته: مقصده"[٤]، فالمفهوم اللغوي للفظ أنه ما يتلفظُ به الإنسانُ من الكلام، وللمعنى أنه المقصودُ باللفظ، فالقصدُ شرطٌ

في اللفظ والمعنى، إذ لو لم يعتبر القصد لا يسمى الملفوظ كلاما.

واللفظ في الاصطلاح هو ما يتلفظُ به الإنسان أو في حكمه، مهملا كان، أو مستعملا [٥]

وعلى مصطلح أرباب المعاني: هو عبارة عن صورة المعنى الأول الدال على المعنى الثاني على ما صرح به الشريف الجرجاني، إذ قال: "إذا وضعوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا اللفظ المنطوق، ولكن معنى اللفظ الذي دلَّ به على المعنى الثاني" [٦]

أما المعاني فهي الصورة الذهنية إذ وقع بإزائها اللفظ من حيث إنها تقصد منه، وذلك ما يكون بالوضع، فإن عبر عنها بلفظ مفرد سمي معنى مفردا، وإن عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركبا[٧]. والمعاني: هي الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما "[٨]. والمعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ الذي نصل إليه بغير واسطة"[٩].

يتضح إذن من خلال هذه التعريفات، أن طبيعة اللفظ والمعنى هو التلازم، فلا وجود للفظ بدون معنى، ولا وجود لمعنى بدون لفظ. فإذا كان المعنى صورة ذهنية فقد وضع بإزائه لفظ هو القصد من تلك الصورة أو هويتها.

وقد أدرك العلماء على نحو جيد قوة الترابط بين اللفظ والمعنى، وأدركوا قيمة المعنى في التعبير، ومكانة الألفاظ حين تنضم إلى بعضها، فالمعنى لا يقوم بغير لفظ، كما لا تقوم الروح بغير جسد، فهما متلازمان تلازم الروح والجسد في الأشخاص يقول العتابي "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا، أو أخرت منها مقدما، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، ولتحولت الخلقة وتغيرت الحلية" [١٠].

ولأهمية هذه الثنائية في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت محط اهتمام الباحثين والدارسين على اختلاف بيئاتهم ومعارفهم، فتعددت حولها النظريات وتضاربت حولها الآراء، واختلفت المناهج والمصطلحات من حقل لآخر. ونستطيع أن نقول إن التداخل والترابط الذي تتسم به ثقافتنا العربية الإسلامية، جعل من هذه الثنائية إرثا مشتركا بين جميع البيئات المعرفية، لأن الاهتمام بها كان يستهدف أساسا خدمة النص القرآني، ودراسته وتحليله، فكان لكل بيئة نصيبها من بحث هذه القضية ومعالجتها بما يتناسب وطبيعة المادة الموصوفة.

فقد تعامل المتكلمون مع مشكلة اللفظ والمعنى على نحو يختلف عما كان عليه الأمر مع الأدباء أو النقاد، وتعرض لها الأصوليون في بحوثهم ودراساتهم على نحو آخر يختلف عما كان عليه الأمر مع الفقهاء واللغويين والفلاسفة، فكل بيئة كانت تعرض لهذه القضية وتتناولها من زاويتها الخاصة، وتذهب فيها مذاهب، وتؤلف حولها آراء ونظريات، وإن كان الأساس الذي ترتكز عليه جميع البيئات يكاد يكون واحدا، فالمحفز لهذا الصراع فكرة الإعجاز في القرآن وارتباط الفكر النقدي والبلاغي بمضامينها، بوصفه عربياً إسلامياً ، فكان النزاع محتدماً في أين يكمن الإعجاز ، في اللفظ وتأليفه ، أو المعنى ودلالته ، أو بهما معاً ، أم بالعلاقة المتولدة بين هذا وذاك.

ويمكن حصر أبعاد هذه القضية في أربعة اتّجاهات:

- اتّجاه التحيّز للفظ ويمثله الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ).
- اتّجاه التسوية بين اللفظ والمعنى ، ويمثله ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ).
- اتّجاه المزج بين اللفظ والمعنى ، ويمثله ابن رشيق (ت ٤١٤ هـ) وابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ).
- اتّجاه النظم والقول بالعلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، ويمثله عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ).

و وقوفا عند الاتّجاه الأوّل نرى أنه ما من شك أن الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هو أول من ألقح شرارة هذه المعركة ، تعلقاً منه بمذهب الصيغة ، وتعصباً للفظ ، ومشايعة للصياغة سواء فيما رآه

وقرره ، أو بما نقله وأقحمه من آراء العلماء والأدباء والنقاد ، وهو في كل ذلك يضع الأناقة والجودة والجمال في الألفاظ ، فالمقياس عنده للقيمة الأدبية إنما يتقوم في جزالة اللفظ ، وجودة السبك ، وحسن التركيب لأن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والقروي ، والبدوي والقروي ، إنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك »[١١].

والسؤال المطروح هنا هو: لماذا اتجه الجاحظ هذا الاتجاه مع انه لم يكن من الشكلين في التطبيق ؟

لهذا اسباب كثيرة منها أن الجاحظ لم يتابع استاذه النظام في قوله بالصرفة تفسيرا للاعجاز وانما وجد أن الاعجاز لا يفسر إلا عن طريق النظم ومن آمن بأن النظم يرفع البيان إلى مستوى الاعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنى نظرية تقديم المعنى على اللفظ ومنها أن عصر الجاحظ كان يشهد بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء ولا نستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على هذا التيار مرتين، مرة بأن لا يشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل معاصروه، ومرة بأن يقرر أن الافضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعا ، وسبب ثالث قائم في طبيعة الجاحظ نفسه فقد كان رجلا خصب القريحة لا يعييه الموضوع ولا يثقل عليه المحتوى أيّا كان لونه لذا فانه كان يحس أن المعنى موجود في كل مكان وما على الاديب إلا ان يتناوله ويصوغه صياغة متفردة.

ونجد ان العسكري الذي ورث هذه النظرية الجاحظية يقول في الباب الثاني من الصناعتين: الكلام . أيدك الله . يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخير ألفاظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، وليس مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشابه بواديه ، وموافقة أخيره فباديه ، حتى لا يكون في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً) .[١٢]

فعيار سلامة الكلام عنده تنحصر في سلامة اللفظ وسهولته ونصاعته ، وجودة مطالعه ، ورقة

مقاطعه ، وتشابه أطرافه ، وما نسجه على هذا المنوال وفي هذا الهدف ، أما إصابة المعنى (فليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا) .[١٣]

فالعسكري معني بالهيكل وأناقته ، وهو يحكي ما قرره الجاحظ ويتناوله بالكشف والإيضاح ، ولا جديد عنده عليه ، فهما إذن يصدران عن قاعدة واحدة تشكل هذا الرأي الخاص ، ولعل مرد هذا الرأي في تعصبهما الظاهر للفظ إنما يرجع إلى دوافع نفسية وسياسية وعصبية قبلية ، وإن صح هذا فهذه الدوافع لا تشكل حكماً علمياً مجرداً ، ولنقف عندها قليلاً :

أ . الدافع النفسي : لا شك أن اللفظ الرقيق ، والجرس الناغم ، والتركيب الناصع ، مظاهر تسيطر على النفوس فتنجذب نحوها انجذاباً ، وجزالة الأسلوب تهيمن على القلوب فتبهر بها وتنساق إليها ، سيراً وراء هذا المظهر البراق ، ولعل الجاحظ والعسكري قد افتتنا بهذا فسيطر عليهما نفسياً ، حتى عاد ذلك قناعة ورأياً ، فكانت أراؤهما تعبيراً عما يعتقدان.

ب . الدافع السياسي : كانت السلطة الزمنية في الفترة ما بين عصري الجاحظ والعسكري فترة مزدهرة بالترجمة والتأليف والكتابة وصولة البيان ، وكان الخط السياسي معنياً بتقييم الكتاب ، فعليهم تقوم أركان الدولة ، وبهم ينهض مجد الحكم ، ومنهم يخرج عطاء الناس ، وبهم تتفاخر الأمراء والوزراء والولاة ، والكتاب إنما يتميزون بالأداة الصالحة والمهارة الفنية ، وهما يستقيمان باللفظ والتحكم فيه ، وإخضاع تلك المهارة لأغراض الدولة ومتطلبات السلطان ، وليست أغراض الدولة أغراضاً علمية فتحتاج إلى عميق المعاني وموضوعية البيان ، وإنما هي أغراض سياسية تحققها قعقعة الألفاظ وزبرجة الهياكل ، فإذا أضفنا إلى هذا مكانة الجاحظ وشخصية العسكري وما يقتضي مركزهما من التريث والتدبر حفاظاً على النفس ، وقضاء للمصالح ، فما المانع أن يندفعا هذا الاندفاع إرضاء لأولئك

الكتاب ، أو حذراً من ولاة الأمور ، ولكن هذا التعليل يقضي بأن الجاحظ والعسكري وأنصارهما قد تجاهلوا كيانهم الحضاري ومجدهم العلمي ، وفرطوا بذوقهم الأدبي وتراثهم العقلي راغبين أو راهبين.

ج . الدافع القومي : ومرده في إعطاء هذا الرأي وبخاصة من قبل الجاحظ هو محاولة

دحض مزاعم الشعوبيين الذين حاولوا تفضيل نصوصهم الأدبية على النصوص العربية بكثرة معانيها ، وتدفق أغراضها ، وتعدد موضوعاتها ، فكان رد الفعل لدى النقاد العرب هو التقليل من قيمة المعاني وإعطاء القيمة للصناعة اللفظية.

أما الاتّجاه الثاني و يمثّله ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الذي ذهب إلى القول بالجمع بين اللفظ والمعنى مقياساً في البلاغة ، وميزاناً للقيمة الفنية ، فرأى أن الشعر يسمو بسموهما وينخفض تبعاً لهما ، و يمكن القول أن الناقدان _ ابن قتيبة والجاحظ _ قد اتفقا في موقف واختلفافي في مواقف أخرى لان الاعتدال عند ابن قتيبة قد بسط ظله على نظرته العامة ومن ابين الفروق بينهما اختلافهما في النظر الى مشكلة اللفظ والمعنى فبينا انحاز الجاحظ الى اللفظ ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية ، ولهذه القضية ركنان (اللفظ والمعنى) ومميزان (الجودة و الرداءة) ولا بأس أن يتجه ابن قتيبة في هذا النحو فيجد ان للشعر اربعة اضرب لا تسمح العلاقة المنطقية في نظره باكثر منها

وقد قسم الشعر إلى أربعة أضراب :

١ . ضرب حسن لفظه وجاد معناه.

٢ . ضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

٣ . ضرب منه جاد معناه ، وقصرت ألفاظه.

٤ . ضرب منه تأخر معناه ، وتأخر لفظه [١٤].

فاللفظ والمعنى عند ابن قتيبه يتعرضان معاً للجودة والقبح ، ولا مزية لأحدهما على الآخر ، ولا استئثار بالأولوية لأحد القسيمين ، فقد يكون اللفظ حسناً وكذلك المعنى ، وقد يتساويان في القبح ، وقد يفترقان.

ولم يعدم ابن قتيبة الموافقين له على رأيه ، وفيه من الوجاهة ما يدعمه ، فقد سار على منهاجه قدامة بن جعفر في نقد الشعر وتحدث عن اللفظ والمعنى ، وجعلهما قسيمين في تحمل مظاهر القبح وملامح الجودة فيما أورده من آراء في عيوب الألفاظ والمعاني [١٥].

وإذا وافقنا ابن قتيبة في تقرير الموضوع الأصل وهو سليم جداً ، فإننا نخالفه في طبيعة فهمه ، وتطبيق الحكم على النماذج التي أختارها دليلاً على صحة دعواه. ولا سيما في الضرب الثاني

الذي حسن لفظه وقصر معناه ، فإنه يستشهد بهذه الأبيات:

"ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهاري رحالنا

ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بينا

وسالت بأعناق المطي الأباطح

ثم يعقب عليها ناقداً ومعلقاً بقوله « هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام متى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الانضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي منهم الرائح ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح "[١٦]

فابن قتيبة ببساطة يحكم على سذاجة المعنى ، ويدعي في الألفاظ سلس العبارة ، وجودة المخارج ، وحسن المقاطع .

فالمسالة اذن مسالة صلة بين اللفظ والمعنى وعلاقة الجودة في كليهما معا هي المفضلة وهذا يعني أن المعاني نفسها تتفاوت وانها ليست كما زعم الجاحظ (مطروحة في الطريق) ويستشف من امثلة ابن قتيبة ان المعنى عنده قد يعني الصورة الشعرية مثلما يعني الحكمة ولكن هذه الامثلة نفسها تشير الى انه يستمد حكمه من بيت واحد او بيتين او ثلاثة في الاكثر . ان قضية اللفظ والمعنى لم تتناول العمل الادبي كله تحت بحيث تتطور الى ما نسميه (الشكل والمضمون) ولا هي استطاعت ان تقترب مما قد يسمى (الصلة الداخلية) بين هذين ، ولعلها كانت ذات اثر بعيد في صرف النقد عن تبين وحدة الاثر الفني في مبناه الكلي غير انها رغم ذلك اسلم من الانحياز السافر الى جانب اللفظ إلى جانب معادلة اللفظ والمعنى وقف ابن قتيبة عند قسمة ثنائية في النظرية الشعرية فقد كثر الحديث في عصره عن الطبع والتكلف دون تحديد لهذين المصطلحين فتناولها ابن قتيبة بالتفسير والتمثيل وقد خفي على الدارسين المحدثين أن قلّة (المصطلح النقدي) لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل هاتين اللفظتين بمدلولات مختلفة فالتكلف حين يكون

وصفا للشاعر مختلف عن التكلف حين يكون وصفا للشعر تقول شاعر (متكلف) وتعني ما نعنيه حين نقول أنه (صانع) ولهذا لا بد من تحديد معنى الكلفة والصنعة عند بن قتيبة

فالشاعر المتكلف عند ابن قتيبة هو كل شاعر قام بتجويد شعره، ونقحه وأعاد النظر فيه، كزهير والحطيئة، وقد استند في ذلك إلى قول الأصمعي الذي كان يقول: "زهير والحطيئة وأشباههما من عبيد الشعر"[١٧]، إلا أنه في موضع آخر من الكتاب يريد بالتكلف معنى آخر وهو المشقة والعناء، إذ "كان الفرزدق يقول أنا اشعر تميم وربما أتت علي ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت"[١٨]

يقول ابن قتيبة أيضا : "فالمتكلف من الشعراء هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش واعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة "[١٩] فاذا قلت (شعر متكلف) عنيت ظهور (التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالعاني اليه حاجة وزيادة ما بالعاني غني عنه) وهذا يقابل ما نسميه (رداءة الصنعة) وليس كذلك شعر المنقحين امثال زهير والحطيئة على ان المتكلف من الشعر قد يكون جيدا محكما في راي ابن قتيبة ولكن لا اظنه يعني : ما تكثر فيه الضرورات وما فيه حذف للضروري واثبات لما يمكن الاستغناء عنه وكيف يكون في هذا الجيد المحكم وهو مخل بأبسط مقتضيات البلاغة؟

ويذكر ابن قتيبة سمة اخرى للتكلف في الشعر سوى رداءة الصنعه وتلك السمه " ان ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفقه "[٢٠] وهذا مقياس هام لانه أول الطريق إلى الوحدة الكلية في القصيدة عامة وفقدان القراءة بين الابيات ليس من صفات شعر المنقحين ومن ثم يتضح لنا تماما أن لفظة المتكلف اذا اقترنت بالشاعر عنت شيئا متميزا عن معناها حين يوصف بها نوع من الشعر ولذلك قال ابن قتيبة في وصف ابيات للخليل وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة كشعر الأصمعي وشعر ابن المقفع وشعر الخليل خلا خلف الأحمر فإنه كان أجودهم طبعا وأكثرهم شعرا[٢١]

وهنا لا بد من الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى ذيوع هذا النمط من الشعر (شعر التكلف) و المتمثلة في "الطمع" بمعنى شيوع شعر التكسب. أما الطبع وتقول (شاعر مطبوع) وتعني في ذلك ما نعنيه اليوم بعفوية القول وتدفقه ،، يقول ابن قتيبة " والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي واراك في صدر بيته عجره وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع و وشي الغريزة واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر "[٢٢] وهو يشير إلى ما في شعر المطبوعين من السبك والتلاحم سواء أكان ذلك في البيت الواحد، أو في القصيدة كلها، مما يعني رضاء هؤلاء المطبوعين عن شعرهم.

وهذا يعني أن الطبع يشمل القول على البداهة مثلما يشمل (الصنعه الخفية) التي لا تظهر على وجه الاثر الفني .

ومراد هذا النص أن المطبوع من الشعراء، هو من يقول الشعر على طبيعته ولا يجهد نفسه أثناء قوله. ومعنى "لا يتلعثم إذا سئل" أي لا يتردد في قول الشعر. إذ يتبادر إلى ذلك منذ الوهلة الأولى، وفي هذا يختلف الشعراء، وذلك لأن المطبوعين من الشعراء يختلفون من غرض إلى غرض آخر. وقد صنفهم ابن قتيبة إلى أربعة أصناف:

- شاعر يسهل عليه المديح.
- شاعر يعسر عليه الهجاء.
- شاعر تتيسر عليه المراثي.
- شاعر يتعذر عليه الغزل.

لقد كان رواة الشعر أسبق من نقاده في إدراك قضية الطبع وما تشير إليه من دلالات السهولة واليسر وطواعية الشعر الذي يخرج من أفواههم أول ما يخرج تام الخلق مستوياً على سوقه دون أدنى عناء أو مشقة وأدركوا بالمثل قضية الصنعة، وما تستدعيه عند صاحبها من التكلف والمشقة والجهد، فهذا الأصمعي يقول فيما يرويه الجاحظ في بيانه: " زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر؛ لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكذلك كل من جوّد في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة، وكان يُقال: لولا أن الشعر قد كان استعبدهم، واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين

تأتيهم المعاني سهواً ورهواً، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً"[٢٣] وما تأتي المعاني سهواً رهواً، وانثيال الألفاظ انثيالاً إلا صورة من صور البديهة الحاضرة، والارتجال الذي ينم عن قريحة شعرية ملهمة تبعد بصاحبها عن أن يراجع شعره وينقحه ويهذبه ويثقفه، وبذلك نجد الجاحظ يذم التكلف والتصنع الذي ينصرف إلى قهر النفس على قول الشعر مع إعمال العقل وكده – برغم أنه أكد في الحيوان على ضرورة مراجعة العمل الأدبي لأنه يفارق المطبوع من الشعر.

أما الاتّجاه الثالث ويتمثله ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) فقد اعتبر اللفظ والمعنى شيئاً واحداً متلازماً ملازمة الروح للجسد ، فلا يمكن الفصل بينهما بحال ، قال :

« اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه.. فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه »[٢٤] .

ويبدو لي أن هذا النوع من التعقيد والتقرير أقرب إلى القصد والاعتدال منه إلى التمحل والتعقيد ، فالصورة عند ابن رشيق لا تكون واضحة الرؤية خصبة التخطيط إلا من خلال عنايتها باللفظ لتجعله الوسيط الدال على المعنى المراد للصلة الوشيجة بينهما « لأن التفكير في اللفظ والمعنى تفكير جملي يفكر فيه الأديب مرة واحدة وبحركة عقلية واحدة ، فإذا رتبت المعاني في الذهن ترتيباً منطقياً ، وإذا تحددت في الفكر تحديداً يجمعه ترابط المعاني وتداعيها ، هذا الترابط وهذا التداعي الذي يرضاه المنطق أو يرضاه حسن الأديب ، انحدرت هذه المعاني على اللسان بألفاظها الملائمة بها خطابة ، وانحدرت على القلم بألفاظها المطاوعة لها كتابة وشعراً من غير تهذيب واختيار لهذه الألفاظ » [٢٥].

وهذا المنهج الذي اختطه ابن رشيق تكاد تنجذب له نفوس قسم من النقاد القدامى والمعاصرين ، ففي طليعة القدماء ابن الأثير ، الذي يرى أن عناية العرب بألفاظها إنما هو عناية بمعانيها ، لأنها أركز عندها وأكرم عليها ، وإن كان يسوغ بل يعترف أن عناية الشعراء منصبة على الجانب اللفظي ، ولكنها وسيلة لغاية محمودة وهي إبراز المعنى صقيلاً ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا

ألفاظهم وحسنوها ، ورققوا حواشيها ، وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني [٢٦].

ولا تفسر هذه المحاولة من ابن الأثير بالاقتداء بخطوة ابن رشيق وهي وإن لم تصرح بمزج اللفظ والمعنى في قالب واحد ، ولكنها تشير إلى قيمة المضمون والشكل معاً في صقل الصورة ، وتلمح إلى طبيعة التلاؤم بينهما.

وقد لاقى هذا الاتجاه سيرورة وانتشاراً عند كثير من النقاد المحدثين . وإن لم يثبت اطلاعهم عليه ، لأنهم لا يشيرون إلى مصدره وكأنهم مبتكرون . فربطوا بين اللفظ والمعنى حتى ليخيل إليك أنهما شيء واحد ، وحدبوا على تطوير نظرتهم هذه وصعدوا بها إلى مستوى الحقائق الثابتة من خلال إشباع البحوث استدلالاً لها ، ونسجاً على منوالها ، حتى أخذت طريقها إلى مستوى النظريات والصيغ النهائية.

يرى الناقد الفرنسي دي جورمون « أن الأسلوب والفكر شيء واحد ، وإن من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة » [٢٧].

وطبيعي أنه ينظر إلى الألفاظ بأنها أساليب وإلى المعاني بأنها أفكار ، ثم يخطئ القائلين بفصل تلك الألفاظ عن هذه المعاني.

ويقول (دونالد استوفر) باتحاد الشكل والمحتوى ، ويرى فيهما شخصية واحدة لا يمكن أن ينظر إلى أجزائها في استيعابها وتحديد النظرة الفاحصة إليها فيقول : إن القصيدة تتمتع بشخصية متماسكة حية ، وأنها وحدة تتألف من عناصر مختلفة كثيرة ، وهي متماسكة ومتوازنة ، من حيث الشكل والمحتوى بل يتداخل فيها الشكل والمحتوى على نحو لا يمكن معه تصور كل منهما على حد » [٢٨].

هكذا كانت النظرة بالنسبة للنقاد الغربيين ، فإذا استقبلنا النقاد العرب المعاصرين وجدنا الفكرة أعمق رسوخاً ، وأصلب عوداً ، والنظرة أفحص إمعاناً ، وأكثر ذيوعاً ، تارة بالاتحاد بينهما ، وأخرى بعدم الانفصال ، وثالثة بوحدة المؤدى بين الشكل والمحتوى.

يرى الأستاذ أحمد الشايب عدم إمكانية فصل القيمة الفنية بين اللفظ والمعنى ويرى كلاً منهما انعكاساً للآخر بسبب « شدة الارتباط بين المادة والصورة أو بين اللفظ والمعنى ، أو بين الفكرة

والعاطفة من ناحية ، والخيال واللفظ من ناحية ثانية ، إذ كان هذان صورة لذينك ، وأي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح » [٢٩].

ويرى الدكتور بدوي طبانة أن اللفظ والمعنى حقيقتان متحدتان ، ومنزلتهما واحدة لا تمايز بينهما ، والعناية بأحدهما عناية بالطرف الآخر ، والاهتمام يجب أن يقسم عليهما بالتساوي لأنه اهتمام بالعمل الأدبي وزنة للقيمة الفنية فيقول : « وليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي ، ولا شك عند المنصفين أن وجوب مراعات جانب المعنى لا يقل شأناً عن وجوب الاهتمام بالالفاظ » [٣٠].

والحق أن إدراك هذه العلاقة بين اللفظ والمعنى ، واعتبارهما وحدة متجانسة في دلالتها على الصورة ، يمكن اعتباره امتداداً منطقياً لجزء مهم من رأى الفريق الرابع من فرقاء المعركة.

أما الاتّجاه الرابع و يتمثله عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » فقد هذب عبد القاهر من المفاهيم المرتجلة لدلالة الألفاظ والمعارف وأقامها على أصل لغوي وعلمي رصين ، وأدرك مسبقاً سر العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى ، ورفض القول بإيثار أحدهما على الآخر ، واعتبرهما بما لهما من مميزات وخصائص واسطة تكشف عن الصورة ، فقال بالنظم تارة ، وبالتأليف تارة أخرى ، مما لم يوفق إليه الفرقاء في النزاع ، والملاحظة عنده أن النظم عبارة عن العلاقة بين الألفاظ والمعاني ، وأنها تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل [٣١]

وقد أنكر عبد القاهر الجرجاني أن تكون الفصاحة من عوارض اللفظ المفرد، لإيمانه بأن فصاحة اللفظ عائدة للمعنى، وأن هذه الفصاحة لا تظهر إلا بضم الكلام بعضه إلى بعض في جملة من القول، أو في نص من النصوص، وما يدل على ذلك أننا نرى اللفظة فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع كثيرة، ومن ثم فإن المزية التي من أجلها استحق "اللفظ الوصف بأنه فصيح، هي في المعنى دون اللفظ لأنه لو كانت بها المزية التي من أجلها يستحق الوصف بأنه فصيح تكون فيه دون معناه، لكان ينبغي إذا قلنا

في اللفظة إنها فصيحة، أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها في كل حال"[٣٢]. يربط عبد القاهر مفهوم الفصاحة بالنظم والتأليف والترتيب، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم الذي ينتظم به المعنى، فالنظم "عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة، فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش والوشي"[٣٣]

والحقيقة أن الألفاظ المفردة لا يتصور أن يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة ومجردة دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، ولكن ذلك لا ينفي أن للألفاظ المختارة فضلا في معنى النظم وجمال التأليف. فالرأي المنصف أن النظم أو التركيب، يحسن بالألفاظ العذبة السلسة، ويقبح بالألفاظ القبيحة الخشنة، ثم إن الألفاظ الحسنة تزداد جمالا وحسنا بحسن موافقتها لما جاورها من الألفاظ، فيكشف التجاور عما فيها من حسن وجمال. ولعل في هذا القدر من الشرح والتوضيح كفاية لإبراز جهود البلاغيين في معالجة قضية اللفظ والمعنى، لننتقل إلى جهود اللغويين.

يربط عبد القاهر مفهوم الفصاحة بالنظم والتأليف والترتيب، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم الذي ينتظم به المعنى، فالنظم "عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة، فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش والوشي"[٣٤]

والحقيقة أن الألفاظ المفردة لا يتصور أن يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة ومجردة دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، ولكن ذلك لا ينفي أن للألفاظ المختارة فضل في معنى النظم وجمال التأليف. فالرأي المنصف أن النظم أو التركيب، يحسن بالألفاظ العذبة السلسة، ويقبح بالألفاظ القبيحة الخشنة، ثم إن الألفاظ الحسنة تزداد جمالا وحسنا بحسن موافقتها لما جاورها من الألفاظ، فيكشف التجاور عما فيها من حسن وجمال. ولعل في هذا القدر من الشرح والتوضيح كفاية لإبراز جهود البلاغيين في معالجة قضية اللفظ والمعنى، لننتقل إلى جهود اللغويين.

وقد يخيل للبعض أن عبد القاهر من أنصار المعنى دون اللفظ نظراً لتهجمه على القائلين

بأولوية اللفظ ، وليست الألفاظ عنده « إلا خدم المعاني »[٣٥]، ولكن عبد القاهر يشن هذه الحملات ، ويصول ويجول في قلمه وما يضربه من أمثلة وشواهد ، وما يقرره من قواعد ، لا انتصاراً للمعنى ، وإنما هو تفنيد لآراء القوم وتدليل على مفهوم الصورة عنده بالنظم ، ولا نظم في الكلم وترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك » .[٣٦]

ويعود عبد القاهر بالنظم إلى أصل قائم على أساس من علم النحو ، وطبيعي أن النحو يعني ببناء الكلمة وإعرابها ، ومعرفة هذه الصيغة . وإن كانت منصبة على اللفظ . فإنها ترتبط بمعنى اللفظ في وضعه بمكانه من المعنى المراد ، لأن المعاني لا يحل إبهامها ما لم يقصد إليها من خلال الألفاظ ، والألفاظ لا يفهم مؤداها مالم تضبط صياغة وتصريفاً ونحواً بناء وإعراباً على حد سواء ، وهما متعاونان معاً على كشف العلاقة التي عبر عنها بالنظم و « ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه على النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف منهاجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء » [٣٧]متخذاً بالإضافة إلى هذا التشبيه والمجاز والاستعارة مضماراً لشرح آرائه ، وميداناً لاستدراكاته على أصحاب اللفظ ، وأن النظر إلى هذه المقومات اللفظية بأقسامها وأنواعها لا يعود لألفاظها فحسب ، وإنما للمعاني وما تضفيه على الألفاظ مما يكون حسن النظام وجوده التأليف ، وهو العلاقة المترتبة على فهم القسيمين اللفظ والمعنى .[٣٨]

وحقاً إنك لتجد عبد لقاهر قوي الحجة ، عجيب المناظرة ، في جولته النقدية هذه ، يزيدك سخرية بأولئك جرحاً وتقويماً، وإرجاعاً بآرائهم إلى ما اعتادوه دون روية وتمييز من شغف بالبديع وتعلق بالصناعة ، حتى ليصعب فهم ما المقصود من الكلام ، فالسامع يخبط في عشواء ، من كثرة التكلف وشدة التمحل ، وهو يقرر هذا المعنى بقوله : إن في كلام المتأخرين كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع ، إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في

عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن يثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسهم.

والحملة على المحسنات البديعية لا تقلل من أهمية اللفظ ، ومنزلته في تقويم المعنى ، ولكن الإغراق بأصناف البديع يجعل اللفظ فارغاً إلا من جمال الهيئة الذي قد يعود وبالاً على اللفظ ، كما تعود أشتات الحلي ثقلاً على الحسناء يوردها التلف.

ومن خلال ما تقدم تتضح أبعاد المعركة النقدية بين اللفظ والمعنى ، وقد تجلى فيها أن الجاحظ والعسكري معنيان بحسن الصياغة وجزالة الألفاظ وقد عللنا هذا الرأي بصدوره عن دوافع نفسية وسياسية وقومية ، انتهت بأناقة اللفظ وجرس الكلمة.

ولا حظنا بعد ذلك المقاييس النقدية عند ابن قتيبة بإرجاعها القيمة الفنية إلى القسيمين اللفظ والمعنى ، واتفقنا معه في أصل الحكم والموضوع وناقشنا عن صحة تطبيقه لهذا الحكم.

ووقفنا عند رأي ابن رشيق في عدم الفصل بين اللفظ والمعنى وتكوينهما للوحدة الفنية في أي نموذج أدبي ، وصاحبنا سيرورة هذا الرأي عند القدامى والمحدثين الغربيين والعرب ، واستأنسنا بآراء ثلاثة من النقاد العرب : الشايب وطبانة وضيف ، ووقفنا مع الأخير وقفة المقوم لرأيه والقائل بتفصيله ورسمنا من خلال ذلك انطلاقنا في تحديد أبعاد القضية ، ثم عرضنا لرأي عبد القاهر ، واختتمنا الموضوع بلقطات من كلامه وشذرات من تحقيقاته ، ورأينا أن له الفضل في كشف العلاقة بين اللفظ والمعنى بما لهما من مميزات متنافرة ، وانتهينا عنده بالتعبير بالنظم وحسن التأليف عن الصورة الأدبية.

ولكنّ السؤال المطروح هنا هو ما الذي دعا النقاد قديما إلى الإهتمام بمثل هذه القضية ؟

- **أسباب الاهنمام بقضية اللفظ والمعنى:**

إن الاهتمام بقضية اللفظ والمعنى و اختلاف الرؤية فيها يعود إلى اسباب انطلقت اساسا من قراءات النص الديني القرآن الكريم للكشف عن وجوه إعجازه الذي كان الدافع إليه في بعض الحالات، رد مزاعم الطاعنين، وجلاء الحقيقة أمام المشككين الذين خفيت عنهم أسرار بيانه

ولطائف نظمه. وأهم ملاحظة تستوقفنا عند هذه الدراسات التي قدمها علماؤنا عن قضية اللفظ والمعنى، نظرية الفصل التي سيطرت عليهم في تصورهم لها، حيث أخذ البحث عندهم اتجاهين متوازيين، أحدهما اهتم باللفظ والصياغة، والآخر وجه عنايته للمعاني وأحوال التراكيب، ومما يعزز هذا الرأي أن الأصوليين وهم الذين أعطوا أكثر من غيرهم صورة ناضجة عن دراسة المعنى، كانوا يرون أن كل وصف لساني يجب أن يضع في الاعتبار تقديم المعنى المتعلق بقصد المتكلم على محتوى القضية التي يحملها

فإذا تتبعنا آراء العلماء على اختلاف بيئاتهم العلمية نجد فكرة الفصل سائدة ومسيطرة في تصورهم منذ البداية، وفي مقدمة هؤلاء الجاحظ باعتباره أول بلاغي وناقد أثار جدلية اللفظ والمعنى. بقولته المشهورة "المعاني مطروحة في الطريق" وقد زكى عبد القاهر الجرجاني هذه النظرية بقوله "وكيف يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى، وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال، وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى، فاللفظ معك وإزاء ناظرك"[٣٩]

وإذا انتقلنا إلى بيئة اللغويين والأصوليين، فإن هذا الفصل يظل مسيطرا وسائدا كذلك يقول ابن جني "إن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها...فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها"[٤٠].

وفي الحقيقة إن هذا التفضيل للمعنى على اللفظ، أو اللفظ على المعنى، ليس سوى انعكاس لخلاف جوهري مذهبي، فمعظم هؤلاء العلماء على اختلاف بيئاتهم العلمية، كانوا يتوزعون بين أشهر مذهبين كلاميين عرفهما التاريخ الإسلامي، وهما المذهب المعتزلي والمذهب الأشعري، فكان كل عالم من هؤلاء العلماء وهو يحدد موقفه من قضية اللفظ والمعنى، ينطلق من أصول مذهبه الكلامي ويحاول أن ينتصر لآراء هذا المذهب، وينقض آراء خصومه ومخالفيه. ومن ثم فإن هذا التفضيل للمعنى أو للفظ، ليس في الحقيقة سوى انتصار للمذهب وأفكاره، وذلك ما سنخصه بالبحث في دراسة مستقلةلاحقا.

وحيث إن قضية الإعجاز عاشت حياتها الأولى في أكناف المتكلمين إذ كانوا يمثلون جبهة الدفاع عن الإسلام بما يثار حوله من شكوك، فإن ثنائية اللفظ والمعنى قد ارتبطت بهذه القضية عند علماء الكلام وأصبحت لصيقة بها، وأصبحت محط اهتمام مختلف العلماء، بل يمكن القول إن قضية اللفظ والمعنى لم تكن لتكتسب أهميتها عند البلاغيين واللغويين، لولا اتصالها بقضية الإعجاز القرآني، التي كانت الشغل الشاغل لجميع البيئات العلمية، فقد ربط هؤلاء العلماء ما بين قضية الإعجاز وثنائية اللفظ والمعنى لكشف أسرار القرآن الكريم وإبراز سر الإعجاز اللغوي فيه، فاهتم الفريق الأول باللفظ والصياغة لإثبات إعجاز القرآن، واهتم الفريق الثاني بالمعاني وأحوال الإسناد لإثبات الإعجاز.

ومهما يكن من أمر هذا الفصل الذي اتسمت به رؤية العلماء العرب القدامى لعلاقة اللفظ بمعناه، فإن القارئ المنصف للتراث العربي الإسلامي، لا يسعه إلا أن ينظر بإجلال إلى ما تركه هؤلاء العلماء، من دراسات لغوية تتصل بهذه الثنائية، فقد نظروا إلى الألفاظ والمعاني وطبيعة العلاقة القائمة بينهما من زوايا مختلفة، وأبعاد متنوعة، مما يدل على أن هؤلاء العلماء الأفذاذ، كانوا يمتلكون وعيا نظريا كاملا عنهما، وكان من نتائج هذا الوعي أن تركوا لنا "مفاهيم ومصطلحات لغوية ونقدية، يقف الإنسان أمامها بكثير من الإعجاب والعجب. فالإعجاب لأن البلاغي العربي ابتداء من الجاحظ في القرن الثالث الهجري، بل ابتداء بسيبويه في القرن الثاني، وانتهاء بالسكاكي في مطلع القرن السابع، لم يغفل جانبا واحدا من جوانب علم اللغة الحديث كما قدمه (سوسير) في بداية القرن العشرين، كان هؤلاء البلاغيون العرب قد تطرقوا إليها بطريقة أو بأخرى. وبذلك سنحاول تناول هذه القضية لدى المحدثين ومقارنتها بما اورده القدامى.

- **قضية اللفظ والمعنى بين القدماء والمحدثين:**

ونحن وإن كنا لا ننكر أن الدراسة اللغوية في العصر الحديث قد أصبحت أكثر تخصصا وعلمية من سابقاتها عند العرب، إلا أن الدراسات اللغوية العربية القديمة في هذا المجال تبقى رائدة، فقد تطرقت لجميع المواضيع التي تمس ثنائية

اللفظ والمعنى بالدراسة والتحليل من قريب أو بعيد. ويبقى للعامل الزمني أثره على التصور الفكري والمنهجي في الدراسات الدلالية الحديثة، فالدراسة اللغوية العربية لهذه الثنائية قديما ارتبطت بخدمة النص القرآني، والبحث عن مواطن الإعجاز فيه، وحماية لغته من اللحن والانحراف. في حين بدأ الاهتمام بدراسة هذه الثنائية (أو ما يسمى علم الدلالة) عند الأوربيين في فترة جد متأخرة عن العرب "فكلمة دلالة (Semantics)ظهرت لأول مرة في الإنجليزية في القرن السابع عشر في كتاب (جون سبنسر) ثم استعملها اللغوي الفرنسي (ميشيل بريل (M.Breal) (بينما يقول (ليش) إن مصطلح (Semantics) ظهر لأول مرة سنة ١٩٠٠م في ترجمة (بريل (M.Breal)(وأن ما قاله (Leach) يحدد تاريخ استعمال (Semantics)الدلالة باعتباره مصطلحا لغويا"[٤١]

ويعتبر اللغوي (دي سوسير) رائد الاتجاه البنيوي من علماء اللغة المحدثين، الذين درسوا اللغة باعتبارها بناء اجتماعيا متكاملا تلغى فيه الفروق الفردية، وتحصر الجهود في الظواهر العامة، وبمعنى آخر فإن (سوسير) درس اللغة باعتبارها نظاما يجمع عناصر ترتبط فيما بينها ضمن علاقات معينة، فهو يشبه الدوال والمدلولات، أو الألفاظ والمعاني بالجسم الإنساني الذي يتكون من جسد وروح، أو بالماء الذي يتكون من أوكسجين وهيدروجين، فلو أخذ كل عنصر على حدة لما كانت لأيهما خصائص الماء، يقول (سوسير) "لا يتصور وجود الكيان اللساني إلا باجتماع الدال والمدلول وترابطهما. فإذا تناولنا عنصرا واحدا من هذه العناصر اختفى الكيان وتلاشى، وبدل أن نحصل على شيء مشخص لم نجد أمامنا إلا تجريدا خالصا. ولذلك فنحن نخشى في كل وقت ألا ندرك غير جزء واحد من هذا الكيان، بعد أن سبق إلى وهمنا أننا أحطنا به في كليته"[٤٢]. إن ما يريده (دي سوسير) هنا أن الكل ملموس، أما الأجزاء التي يتألف منها الكل، فهي مجردة إذا عد كل جزء في ذاته، وبمعنى آخر فإن عناصر التركيب إذا انفصلت عن بعضها لا تعود تعبر عن خصائص المركب،

وهو بذلك يشير إلى اتحاد الدال والمدلول (اللفظ والمعنى) وعدم الفصل بينهما.

وفكرة التأليف بين اللفظ والمعنى وعدم الفصل بينهما واعتبارهما شيئا واحدا متلازما ملازمة الروح للجسد قد نادى به كثير من علماء العرب القدامى، وفي طليعة هؤلاء ابن رشيق بقوله "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته"[٤٣].

وإذا توجهنا نحو المدرسة الاجتماعية السياقية التي حمل لواءها اللغوي الإنجليزي Firth وجدناه يؤكد على الوظفية السياقية للغة، حيث نظر إلى السياق على أنه جزء أصيل في عملية التحليل اللغوي، واعتبر دراسة البنية اللغوية مقطوعة عن سياقها ذو تأثير واضح على تعدد المعنى وغموضه، وإذا كان الأمر كذلك فإن دراسة معاني الكلمات والألفاظ تتطلب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، سواء كانت سياقات لغوية أو ثقافية أو عاطفية.

ومعنى كلام Firth أن الوصول إلى معنى جملة وإدراكه إدراكا دقيقا واضحا، يرتبط أولا بمعرفة الجملة ذاتها والسياق الذي قيلت فيه. فمثلا إذا أخذنا كلمة good الإنجليزية (هي كلمة حسن بالعربية) فإن لها معاني متعددة حسب السياق اللغوي الذي تقع فيه "فإذا وردت في سياق لغوي مع كلمة (رجل) كانت تعني الناحية الخلقية، وإذا وردت وصفا لطبيب، كانت تعني التفوق في الأداء وليس الناحية الأخلاقية، وإذا وردت للمقادير، كان معناها الصفاء والنقاوة"[٤٤]. وهكذا فحسبFirth ، فإن كل لفظ يحيل على معنى ما، وهذا المعنى يظل غامضا إلى درجة ما، ولا يتضح إلا عن طريق ملاحظة استعماله في سياق معين، والواقع أن الاهتمام بالمقام أو السياق ضروري للوصول إلى المعنى الدقيق، لأن الكلمة إذا أخذت منعزلة عن السياق لا معنى لها ولا قيمة، وهي محتملة لصنوف من المعاني.

على أن فكرة دلالة السياق ليست وليدة علم اللغة الحديث، وإنما هي فكرة قديمة عرفها علماء المسلمين وفطنوا إليها وسبقوا الأوربيين إليها بعدة قرون، ونحن لا نزعم أن علماءنا الأفذاذ كان لهم وعي نظري كامل بجميع القضايا اللغوية، إلا أن متابعة أعمالهم متابعة متأنية ودقيقة تكشف عما

كان لهم من سبق وريادة في مجال الدراسات اللغوية، إذ أدركوا أهمية دلالة السياق في فهم المعنى. يقول السكاكي "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل...وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"[٤٥]ولو نظرنا إلى ما قاله الأصوليون لوجدناهم من أكثر البيئات العلمية وعيا وفهما لما لدلالة السياق من أثر في إجلاء المعنى، فقد حرصوا على استقراء وجوه الدلالة وعلاقة دلالة الألفاظ بعضها ببعض مضافا إلى ذلك إرادة المتكلم وقصده، فاللغة حسب الأصوليين إنما هي ظاهرة اجتماعية نشأت تلبية لحاجات الإنسان في حياته الاجتماعية"[٤٦]. وإذا توجهنا نحو بيئة النقاد المحدثين، فإننا نجدهم قد بحثوا في العلاقة بين اللفظ ومعناه وأدركوا على نحو جيد أهمية المعاني وشدة ارتباطها بالألفاظ، فالمعنى يستلزم اللفظ، واللفظ يستدعي معناه، وهذا ما يؤكده الناقد الفرنسي (دي جورمون) إذ يقول "إن الأسلوب والفكر شيء واحد وإن من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة"[٤٧]. وهذا المنهج الذي اختطه (دي جورمون) هو نفسه الذي ارتضاه نقاد آخرون غربيون وعرب، يقول إبراهيم سلامة "فالمعنى يستلزم اللفظ، واللفظ الدال على معناه لا يفهم وحده فهما تجريديا، وإنما يستدعي غيره، وسواء أجلب اللفظ المعنى، أو جلب المعنى اللفظ، فالتلازم مطلب في كل تعبير منطقي"[٤٨]

هكذا كانت نظرة اللغويين المحدثين لعلاقة اللفظ بمعناه، فهي علاقة عضوية حتمية ملتحمة، فاللفظ والمعنى حقيقتان متحدتان، فالعناية بأحدهما عناية بالآخر، والاهتمام يجب أن يقسم بالتساوي بينهما إذ ليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ والعكس صحيح. وإذا كان أمر ثنائية اللفظ والمعنى عند المحدثين على ما وصفنا، فإن ما يجب الاعتراف به، هو أصالة علماء العرب المسلمين وسبقهم في دراسة هذه الثنائية، وتأسيس نظرية لغوية تشهد بعبقرية العقل العربي، وقولنا

هذا لا يعني أننا ممن يلتمسون النظريات الحديثة في التراث، أو يبحثون لها عن أصول بدعوى السبق والريادة، ولكن النظرة الموضوعية النزيهة إلى ما كتبه هؤلاء العلماء حول هذه الثنائية، وكيف تصوروها، وكيف رصدوا مظاهرها، ثم مقارنتها بما قدمه علماء اللغة المحدثين، تثبت أنه لا تكاد توجد قضية لغوية حديثة أو معاصرة لم تتوقف عندها الدراسات العربية الإسلامية قديما. والغريب في الأمر أن كثيرا من الدارسين العرب المحدثين يديرون ظهورهم لهذا التراث العظيم كله، ويقبلون على ما قدمه علماء اللغة المحدثين في أوربا وأمريكا من مفاهيم ومصطلحات معتقدين أن الحداثة لا تتم إلا بتحقيق القطيعة المعرفية مع التراث، والموقف الصحيح يفرض علينا الرجوع إلى التراث والإقبال عليه فهما ودراسة وتحليلا، مع الاستفادة من منجزات الدراسات اللغوية الحديثة، والاستفادة من مناهجها ومفاهيمها ومضامينها.

- **الخاتمة:**

إنّ للعلاقة بين اللفظ والمعنى أهمية كبيرة في الثقافة العربية الإسلامية، وهذه الثنائية فقد كانت ولم تزل محط اهتمام الباحثين والدارسين على اختلاف بيئاتهم ومعارفهم، فتعددت حولها النظريات وتضاربت حولها الآراء، واختلفت المناهج والمصطلحات من حقل لآخر .

ونستطيع أن نقول إن التداخل والترابط الذي تتسم به ثقافتنا العربية الإسلامية، جعل من هذه الثنائية إرثا مشتركا بين جميع البيئات المعرفية، لأن الاهتمام بها كان يستهدف أساسا خدمة النص القرآني، ودراسته وتحليله. فكان لكل بيئة نصيبها من بحث هذه القضية ومعالجتها بما يتناسب وطبيعة المادة الموصوفة.

فقد تعامل المتكلمون مع مشكلة اللفظ والمعنى على نحو يختلف عما كان عليه الأمر مع الأدباء أو النقاد، وتعرض لها الأصوليون في بحوثهم ودراساتهم على نحو آخر يختلف عما كان عليه الأمر مع الفقهاء واللغويين والفلاسفة، فكل بيئة كانت تتعرض لهذه القضية وتتناولها من زاويتها الخاصة، وتذهب فيها مذاهب، وتؤلف حولها آراء ونظريات، وإن كان الأساس الذي ترتكز عليه جميع هذه البيئات يكاد يكون واحدا، وهو خدمة النص القرآني حيث هذه الغاية المحور الأساس لمسار جميع العلوم العربية والإسلامية.

الهوامش:

١ – الكفوي، أبو البقاء : الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى. ١٩٩٢م. ص: ٧٩٥.

٢ – ابن منظور :لسان العرب، دار صادر بيروت. ١٩٥٥م مادة لفظ،٧/ ٤٦١

٣ – الكفوي، أبو البقاء : الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ص: ٨٤٢.

٤ – ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت. ١٩٥٥م. مادة (عنا): ١٠٦/١٥.

٥ – الجرجاني الشريف : التعريفات، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى. ١٩٨٣م ،ص ١٩٢.

٦ – الكفوي، أبو البقاء : الكليات ،ص، ٧٩٥.

٧ – التهانوي ،محمد علي : كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر بيروت.: ١٠٨٤/٣

٨ – الجرجاني الشريف : التعريفات، ٢٢٠.

٩ – الكفوي، أبو البقاء : الكليات ٨٤٢،

١٠ – أبو هلال العسكري ،الحسن بن عبد الله : الصناعتين في الكتابة والشعر: تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨١م.ص: ١٧٩.

١١ – أبو عثمان عمرو بن بحر ،الجاحظ ، الحيوان : تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ، ١٩٤٥ م ،ص ١٣٢

١٢ – أبو هلال العسكري ،الحسن بن عبد الله : الصناعتين في الكتابة والشعر، ص ٦١.

١٣ – المصدر نفسه : ٦٤.

١٤ – ابن قتيبة أبو محمد، الشعر والشعراء : ، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٦، ١٩٩٧ ص٧ . ٩.

١٥ – ابن جعفر قدامة ، نقد الشعر : تحقيق : الدكتور طه حسين ، عبد الحميد العبادي مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٣٣ م. ،ص١٩٤ . ٢١٤.

١٦ – ابن قتيبة، الشعر والشعراء:ص ٨.

١٧ – نفس المرجع السابق، ص: ٣٣.

١٨ – نفسه، ص: ٣٥.

١٩ _ بن قتيبة: الشعر والشعراء ،ص٧٨

٢٠– نفس المرجع السابق :ص١٢

٢١ – نفسه ،ص٢٧–٢٨.

٢٢ – نفسه، ص: ٣٤.

٢٣ الجاحظ ،البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون ، نشر الخانجي ،ط٥ ،١٩٨٥، ص١٣

٢٤ – ابن رشيق القيرواني ، الحسن العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت لبنان. الطبعة الخامسة، ١٩٨١: ١٢٤/١.

٢٥ – إبراهيم ،سلامة ، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ، القاهره ، ١٩٥٠ م.:ص ١٥١ . ١٥٢.

٢٦ – ابن الأثير أبو الفتح: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٩ م. ٣٥٣/١.

٢٧ – وليم فان أوكونور ، النقد الأدبي، ترجمة : صلاح أحمد إبراهيم ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠:ص ١٠٢.

٢٨ – حياة جاسم ، وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي ، مطبعة الجمهورية ، ١٩٧٢ م: ١٥١.

٢٩ – أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي : ٢٤٦.

٣٠ – بدوي طبانة ، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث : ١٣٨ . ١٣٩.

٣١ – الجرجاني ،عبد القاهر دلائل الإعجاز ،ص ٤٠.

٣٢ – الجرجاني ،عبد القاهر: دلائل الإعجاز،ص: ٤٠٠–٤٠١.

٣٣ – المصدر نفسه: ٣٥٩.

٣٤ – ابن جني ،أبو الفتح عثمان: الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان. ١٤٥/٢ وما بعدها

٣٥ – الجرجاني ،عبد القاهر :أسرار البلاغة في علم البيان: تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت لبنان. ص: ٥

٣٦ – الجرجاني ،عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص: ٤٣.

٣٧ – المصدر نفسه : ٦١.

٣٨ – الجرجاني ،عبد القاهر :أسرار البلاغة في علم البيان: ٦.

٣٩ – الجرجاني ،عبد القاهر : دلائل الإعجاز: ٦٢.

٤٠ – ابن جني ،أبو الفتح عثمان: الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار: ٢١٥/١.
٤١ – السعران د. محمود :علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية بيروت. ص: ١٩.

٤٢ – الكراعين أحمد نعيم :علم الدلالة بين النظرية والتطبيق ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، الطبعة الأولى. ١٩٩٣م. ص : ٨٩.

٤٣ – ابن رشيق القيرواني ، الحسن العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت لبنان. الطبعة الخامسة، ١٩٨١ ج ،١ص١٢٤

٤٤ – عمر أحمد مختار :علم الدلالة، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الثانية. ١٩٨٨م. ص:٦٩–٧٠

٤٥ – السكاكي ،يوسف بن أبي بكر :مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. الطبعة الأولى ١٩٨٣م. ص: ١٦٨– ١٦٩
٤٦ – دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٥
٤٧ – فان أوكونور وليم: النقد الأدبي، ترجمة صلاح أحمد إبراهيم، دار صادر بيروت لبنان. ١٩٦٠م ص: ١٠٢.
٤٨ – سلامة إبراهيم :بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٥٢م.ص: ٣٨٠.

المصادر و المراجع:

١. إبراهيم ،سلامة ، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ، القاهره ، ١٩٥٠ م
٢. ابن الأثير أبو الفتح: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٩ م
٣. ابن جعفر قدامة ، نقد الشعر : تحقيق : الدكتور طه حسين ، عبد الحميد العبادي مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٣٣ م.
٤. ابن جني ،أبو الفتح عثمان: الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان.

٥. ابن رشيق القيرواني ، الحسن العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت لبنان. الطبعة الخامسة، ١٩٨١
٦. ابن رشيق القيرواني ، الحسن العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت لبنان. الطبعة الخامسة، ١٩٨١

٧. ابن قتيبة أبو محمد، الشعر والشعراء : ، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٦، ١٩٩٧

٨. ابن منظور :لسان العرب، دار صادر بيروت. ١٩٥٥م
٩. أبو عثمان عمرو بن بحر ،الجاحظ ، الحيوان : تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ، ١٩٤٥ م
١٠. أبو هلال العسكري ،الحسن بن عبد الله : الصناعتين في الكتابة والشعر: تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨١م.

١١. بدوي طبانة ، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث مكتلة أنجلو المصرية١٩٩٦
١٢. التهانوي ،محمد علي : كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر بيروت(د.ت)

١٣. الجاحظ ،أبو عثمان البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون ، نشر الخانجي ،ط٥ ،١٩٨٥

١٤. جاسم حياة ، وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي ، مطبعة الجمهورية ، ١٩٧٢ م
١٥. الجرجاني الشريف : التعريفات، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى. ١٩٨٣م

١٦. الجرجاني ،عبد القاهر :أسرار البلاغة في علم البيان: تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت لبنان.
١٧. السعران د. محمود :علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية بيروت.

١٨. السكاكي ،يوسف بن أبي بكر :مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. الطبعة الأولى ١٩٨٣م. ١٦
١٩. سلامة إبراهيم :بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٥٢م.

٢٠. الشايب أحمد ، أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧،١٩٦٤
٢١. عمر أحمد مختار :علم الدلالة، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الثانية. ١٩٨٨م

٢٢. فان أوكونور وليم: النقد الأدبي، ترجمة صلاح أحمد إبراهيم، دار صادر بيروت لبنان. ١٩٦٠م
٢٣. الكراعين أحمد نعيم :علم الدلالة بين النظرية والتطبيق ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، الطبعة الأولى. ١٩٩٣م.
٢٤. الكفوي، أبو البقاء : الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى. ١٩٩٢م.

٢٥. وليم فان أوكونور ، النقد الأدبي، ترجمة : صلاح أحمد إبراهيم ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠.